الحكام التقليديون ودورهم في الحياة السياسية والاجتماعية المعاصرة في غرب إفريقيا

حكيم أَلادَيْ نجم الدين
باحث نيجيري مهتمّ بالقضايا الإفريقية

لقد نال موضوع «الزعامة التقليدية» في إفريقيا حظّه من نقاش الباحثين، ويمكن ملاحظة مواقفهم عند تناولهم لأهمية «الزعماء التقليديين» Traditional rulers في أنظمة الحكومات الحديثة؛ بين مَن يرى أنّ مؤسسة الحكم التقليدي أصبحتْ باليةً ومن يؤكد صلاحيتها، وبين مَن يفرّق بين «القادة الطبيعيين» Natural leaders و«الزعماء الأصليين» Indigenous rulers، ومَن يطرح تساؤلات حول ما إذا كان يمكن وصف الزعامة المرتبطة بمجتمع محلّي معيّن في إفريقيا المعاصرة بـ«التقليدية» أو «الأصلية»، نظراً للتطورات التي غيّرت خاصيّات هذا المجتمع وثقافته.

وتهدف الدراسة الحالية إلى استكشاف الأدوار المتغيرة للحكام التقليديين في غرب إفريقيا، من خلال عدة محاور، وهي: الزعامة التقليدية وإشكالية المفهوم، وتأثير الحكم الكولونيالي في نظام الحكم الأصلي الإفريقي، والحكّام التقليديون ومناهضة الكولونيالية بغرب

إفريقيا، والمناصب التقليدية والحكم الكولونيالي في غرب إفريقيا، ودور الحكام التقليديين في المجتمعات القديمة بغرب إفريقيا، ودور الحكام التقليديين في الحياة السياسية والاجتماعية المعاصرة.

أولاً: الزعامة التقليدية وإشكالية المفهوم:

كان التعريف المعتمد لدى الكثير من الباحثين في أنظمة المؤسسات الأصلية الإفريقية؛ أنّ القادة التقليديين (الملوك/ الأمراء/ حكام القبائل/ الزعماء الأصليين) أفرادٌ يشغلون مناصب قيادية سياسية خاصّة بجماعتهم العرقية ومُحْكمة بالأعراف والقيم الثقافية، ويتمتعون بشرعية مجتمعاتهم لتوجيه شؤونهم. وبالتالي كان أساسَ شرعيتهم «التقاليد» التي تشمل مجموعة مكونة من: الثقافة الموروثة، وأسلوب الحياة، وتاريخ الشعب، والقيم الأخلاقية والاجتماعية، والمؤسسات التقليدية Traditional Institutions التي تبقى حيّة من أجل خدمة تلك القيم[١].

على أنّ الزعامة التقليدية أصبحت في إفريقيا المعاصرة مسيّسة للغاية؛ فالحكومات الحديثة هي التي تولّي الحكام التقليديين على مجتمعاتهم دون اعتبارها لتقاليد هذه المجتمعات كأساس الاختيار والشرعية القيادية لهؤلاء الحكام. كما أنّ التقليد المعتمد عليه حديثاً يختلف جزئياً أو كلّياً عن مفهوم التقليد الأصلي وما كان عليه قديماً، حيث ترك حكامٌ تقليديون معاصرون لغاتهم الأصلية وتبنّوا اللغات الأجنبية والثقافات الوافدة، وأدخل آخرون منهم ممارسات غريبة ضمن تقاليدهم، ويشارك جلّهم بانتظام في شؤونٍ تعتبر «خارجة» عن التقاليد[٢].

ولذلك مال «كريستيان كيولدر» Christiaan Keulder إلى تسمية الذين نُصّبوا في المناصب التقليدية بإفريقيا المعاصرة بـ «القادة العُرفيين» customary leaders[٣]؛ لأنّ العُرف- رغم أنه مستمد من التقاليد- يستجيب للتحديات الناشئة والمستجدات الطارئة بسرعةٍ أكبر من التقاليد.

غير أنّ تبنّي مصطلح «القادة العُرفيين» قد يخلق إشكاليات أخرى، ليس فقط للارتباط الشديد بين العُرف والتقاليد، بل لأنّ سلطة المناصب التقليدية المعاصرة مستمدة من تاريخ الممالك والمجتمعات القديمة الخاصة بهذه المناصب، ولا يزال الحكام التقليديون اليوم يحافظون ولو جزئياً على نمط الحياة الاجتماعية القديمة، كما أنهم يديرون فوق شبكة من أنظمة الحكم الأصلية، التي تضمّ زعماء قبائل فرعية وقادة قطاعات محلية أخرى وغيرهم.

وعليه؛ فإنّ أبسط تعريف وأنسبه للوضع الراهن ما أشار إليه «إيريديواوا» Erediauwa، ملك «أَيْدُو» (Edo) النيجيرية بقوله: «الحاكم التقليدي يعني الرئيس التقليدي لجماعة عرقية، مُنِح كُرسيّه أعلى سلطة تقليدية ليتولى شاغل الوظيفة (الموجودة منذ ما قبل بداية الحكم البريطاني)»[٤]، لأنّ الذين يحتلون المناصب التقليدية المعاصرة يستحقون لقب «الحكام التقليديين»؛ لأنهم يحتلون عروش ومقاعد أسلافهم وعُيّنوا عليها (ولو بموافقة الحكومات الحديثة وتدخّلها)؛ وفقاً للعادات والتقاليد الخاصّة بالمجتمعات التي يملكون سلطة الحكم على سكانها.

ثانياً: دور الحكام التقليديين في المجتمعات القديمة بغرب إفريقيا:

لقد لعبت مؤسسات الحكم التقليدية دوراً جوهرياً في نمو الإمبراطوريات والممالك والمجتمعات القومية التي

(١) Adewumi, J.B. & Egwurube, J. (1985). Role of traditional rulers in historical perspective. In Aborisade, O. (Ed.). Local Government and the traditional rulers in Nigeria. Ile-Ife: University of Ife Press.

(٢) Igboin, B. O. (2016). Traditional leadership and corruption in pre-colonial Africa: how the past affects the present. Studia Historiae Ecclesiasticae, 42(3), 142-160.

(٣) Keulder, C. (2008). Traditional leadership. In State, society and democracy: A reader in Namibian Politics. Edited by C. Keulder (Gamsberg: Macmillan), P.152.

(٤) Aborisade, O. (1985). Local Government and the traditional rulers in Nigeria. Ile-Ife, University of Ife Press. P.vii.

تشـكّلت منها منطقة غرب إفريقيا، وذلـك بفضل الملك صاحب السـلطة المطلقة، ولما تميّزت به هذه المؤسسات من حكومات مركزيّة منظمّة (مثل إمبراطورية مُوسِّـي في بوركينا فاسـو)، وهيكل سياسـيّ متطوّر (مثل إمبراطورية أَوْيَـوْ في نيجيريا)، وإدارة لامركزية سـهّلت عمليات حكم نطاقاتها الإقليمية. وهناك ممالك أخرى لم تتركّز السلطة فيها بيد حاكـم محدّد (مثل ممالك الإيبـو، وغيرها، في جنوب شرق نيجيريا).

وقد ساعد تركيز الحكم بيد الحاكم (أو رئيس الدولة) في بقاء غالبية هذه المجتمعات لعدة قرون، ولكنه سـاهم أيضاً في تداعي الدولة وتمرّد المجتمعات المُسيطَر عليها؛ ففـي إمبراطورية غانا (غير جمهوريـة غانا الحديثة) كان الحكم بيد الإمبراطور الذي يستشـير بدوره المسـؤولين، واسـتقرت الدولة بفضل عظمة ملوكها وسـيطرتهم على ممالك وحركات مستقلة متنافسة[١].

وفي إمبراطورية مالي ذات القوة العسـكرية المؤثرة، والتي امتدّتْ في أَوْجِها إلى ١،٢٤٠،١٤٠ كم عبر دولة مالي الحديثة وغامبيا وأجزاء من النيجر والسـنغال وموريتانيا وغينيا وغينيا بيسـاو وسـاحل العاج وغانا، كان «مانسا» (أو الإمبراطور) قائد الحكومـة والمصدر الأعلى للعدالة بمسـاعدة المستشـارين القانونييـن ووزراء في الجيش ومخـازن الحبوب وغيرهمـا. وكان من أشـهر أباطرتها: «سونديانا كيتا»– المؤسس الذي قاد مقاومة الماندينغ ضدّ إمبراطورية سوسو، و«عليّ /وَالي كيتا» الذي يُعدّ من أقوى الذين حكموا مالي، و«أبوبكر كيتا» الأول، و«أبوبكر» الثاني، و«مانسا موسى كيتا» الذي اشتهرت الدولة في عهده بالثراء والاهتمام بالتعليم والمدارس الإسلامية[٢].

ومن سمات الحكومة في إمبراطورية مالي أنها تعددية من حيـث الثقافة واللغة نظراً لكثـرة المجتمعات الواقعة تحت سـيطرتها، حيث الأباطرة لم يجبـروا رعاياهم على اعتناق الإسـلام على الرغم من أنه جـزءٌ مهمّ من هياكل الدولـة[٣]. كما أنّ إدارة الإمبراطوريـة كانت بيروقراطية، حيـث هناك مُحافظ لـكلّ من المقاطعات التي تشـكلت منهـا الدولة، وتحت كلّ مُحافظٍ زعماء القبائل والعشـائر المختارون من قِبَل قومهم والمسؤولون عن تنفيذ سياسات الدولة على المسـتوى المحلي. وعلى الرغم من كلّ التأثير الـذي أحدثته الإمبراطورية في منطقة غرب إفريقيا؛ فقد عانت مـن الصراعات الداخلية[٤]، ويشـير انقلاب القائد العسـكريّ «سـاكورا» على «أبي بكر الأول» إلى أنّ العائلة المالكة فقدتْ شعبيتها بين عامّة الناس، وأنّ الدولة شهدت ضعفاً في القيادة في فترات مختلفة[٥].

ويمكـن ملاحظـة دور الحكام التقليديين أيضاً في الممالـك القديمة بمنطقة جمهورية بنيـن الحديثة (غير مدينة بنين النيجيرية)، بمـا فيها مملكتا «نيكي» و«بورت-نوفو»، ومملكـة «أبومي» التي تُعدّ أقواهـا[٦]، حيث احتلّ ملوكها مكانةً بالغـة الأهمية في جميع نواحي الحياة؛ فهم الذين أصـدروا الأوامر ووضعوا القوانيـن وأداروا جميع شـؤون المملكـة، حتى إن كانت هناك ضوابط مؤسسـية لحفظ التوازن في أنشطتهم السياسية والإدارية.

بل إنّ ملوك «أبومي» بالنسـبة لشعبهم يُعدّون «وسطاء

(١) Conrad, David C. (2009). Great Empires of the Past. Empires of Medieval West Africa: Ghana, Mali, and Songhay. New York: Facts on File, Inc. P.39.

(٢) Levtzion, N. (1963). The thirteenth-and fourteenth-century kings of Mali. The Journal of African History, 4(3), 341-353.

(٣) Adriana, P. (2003). Islam et villes en Afriqa au sud du Sahara: Entre soufisme et fondamentalisme. Karthala Editions, p. 265.

(٤) Ly-Tall, M. (1984). The decline of the Mali empire. In Niane (ed), General History of Africa IV, P. 172-186.

(٥) Beckingham, C.F. (1953). Bulletin of the School of Oriental and African Studies. In African Studies. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V.15 Issue 02, June 1953, PP.391-392.

(٦) J. Cameron Monroe. (2016). Dahomey, Kingdom of. In John M. MacKenzie (ed). The Encyclopedia of Empire. First Edition, P.7.

بيـــن الأموات والأحيـــاء» و«مصدر إلهام للحياة» و«ســـادة الأرض»[١]، كما أنهم مديرو الشـــؤون الاقتصادية للمملكة، وأصحاب الأراضي المؤتمنون من قِبَل الشعب، حيث الملك يوزع للعائلات مســـاحةً مســـتحقة من الأراضي الزراعية، ويحدد نوعية المحاصيل المطلوب زراعتها بمساعدة وزير الزراعة وغيـــره من الموظفين تحت القطاع، وذلك لتحقيق الاكتفـــاء الغذائي الذاتي وتنظيم أســـواق الدولة وتضخيم إيراداتها[٢].

وإذ تاجرت كبريات الممالـــك والمجتمعات الإفريقية القديمة فيما بينها؛ فقد سعى حكامها الأفارقة إلى توسيع دائرة الفـــرص المتاحة لهم بتوطيد علاقاتهم مع الأجانب، بمـــن فيهم الأوروبيـــون الذين جاؤوا إلـــى إفريقيا بدعوى التجارة؛ إذ وصـــل البحارة البرتغاليـــون للمرة الأولى إلى منطقة إفريقيا جنوب الصحـــراء الكبرى في عام ١٤٤٢م، واستقبل الملك «أوزولوا» Ozolua في إمبراطورية «أيدو» عام ١٤٨٥م زائرين برتغاليين، وأُسّس في عام ١٤٩٠م المركز التجاري البرتغالي في Ughoton[٣]. ومن الجدير بالذكر: أنّ الشـــروط الاقتصادية بين الحكام الأفارقة والأوروبيين كانت خاليةً من العدل والمســـاواة، حتى إنه كان هناك من الأباطرة والملوك مَن اســـتغلّوا سلطاتهم القوية ومناصبهم لاحتكار الاقتصاد؛ ففـــي غرب إفريقيا فرض بعضهم على الســـكان نسبةً من الضرائب، وسيطروا على مناجم الذهب والملح وطرق تجارية في الصحراء، وسخّروا أسرى الحرب للعمل في مزارعهم[٤]، وخاصّةً في نهاية القرن الثامن عشر عندما أُلغِي بيع المســـترقّين وأصبحت تجارة زيت النخيل مصدراً رئيســـياً للإيرادات في جميع ممالك غرب إفريقيا الواقعة على طول الساحل الأطلسي[٥]، وهذا بالطبع لا يبّرر أفعال الكولونياليين الأوروبيـــن، ولا يجعلهم أوصياء على المجتمعات الإفريقية.

ثالثاً: الحكّام التقليديون ومناهضة الكولونيالية بغرب إفريقيا:

إنّ طلـــب زعمـــاء معيّنين بغرب إفريقيـــا دعمَ القوى الأوروبية- لمحاربة منافســـيهم من الممالك والمجتمعات الأخرى- مهّد الطريق أمام استغلال الكولونيالية الأوروبية لهؤلاء الحكام في توســـيع مجالات نفوذها. ولكن قلة عدد هؤلاء الزعماء، مقارنةً بعدد الحكام والزعماء الذين تصدّوا لإيقاف تجاوزات الأوروبيين، يدحض الشـــكوك والمزاعم التي يروّج لهـــا الذين يتناولون النضـــالات الإفريقية ضدّ الاحتلال الأوروبي من وجهة نظر أوروبية.

ومن الاســـتراتيجيات التي تبنّاها الحكام التقليديون، الذين رفضوا القرارات التجاريـــة الأوروبية، وأصرّوا على استقلال مجتمعاتهم وأحقيتهم في فرض الرسوم الجمركية: الدبلوماسية، والمناورة أو التحالف، ثم المواجهة العسكرية في حال فشل الخيارات السابقة[٦].

ففـــي جمهوريـــة غانا اليـــوم؛ خاضـــت إمبراطورية «أشـــانتي» سلسلةً من الحروب التي بدأت عام ١٨٠٥م ضدّ البريطانيين أثناء محاولاتهم لبناء إمبراطوريتهم الكولونيالية بغرب إفريقيا، وبرز اسم «بريمبيه الأول» Prempeh I- الملك الثالث عشر لـ«أشانتي»- من بين القادة المناضلين، حيث رفض التوقيع فـــي عام ١٨٩١م على معاهدة الحماية الإمبريالية التي ضمنت السيطرة البريطانية على «أشانتي»،

(١) Ayo, S. B. (1986). Traditional Rulers and the Operation of Local Administration in the Republic of Benin. Verfassung und Recht in Ьbersee/Law and Politics in Africa, Asia and Latin America, PP.139-147.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٠.

(٣) Park JD. (2019). Disillusionment and Dilemma. In: Re-Inventing Africa's Development. Palgrave Macmillan, PP.3-35.

(٤) Pouwels, Randall L. (2005). The African and Middle Eastern World, 600–1500. Oxford University Press. p.104

(٥) مصدر سابق: Ayo, S. B. Traditional Rulers and the Operation of Local Administration in the Republic of Benin. P.140.

(٦) Tussing, N. (2017). African Resistance to European Colonial Aggression: An Assessment. Africana Studies Student Research Conference, https://scholarworks.bgsu.edu/africana_2/001/studies_conf/2016

مُصـــرّاً على ضرورة بقاء دولته مســـتقلة، وهو ما أدى إلى إهانته ونفيه في عـــام ١٨٩٧م إلى قلعة المينا ثم إلى جزر سيشيل[١].

بل عندما طالبت بريطانيا في عام ١٨٩٩م من شـــعب «أشانتي» تسليم كرســـيهم الذهبي، الذي يُعدّ رمزاً لوحدة أراضيهم، تصدّرت «يا أســـانتيوا»- الملكـــة الأم لمقاطعة «إجيســـو» Ejisu- المشـــهدَ، وذلك بسبب تقاعس زعماء الدولة الرجال عن شـــنّ حربٍ علـــى البريطانيين؛ فقادت المقاومـــة العســـكرية التي حوصر من خلالها المســـؤول البريطانـــي في كوماســـي، كما أنّ بريطانيـــا أخفقتْ في مســـعاها حتى يوليو ١٩٠٠م، وضمّت «أشـــانتي» في عام ١٩٠١م إلى إمبراطوريتها[٢].

وإذا كان الزعيم الشـــيخ «عمر سعيد طعل»- مؤسس إمبراطوريـــة «تكرور»- قد قاد حـــركات عام ١٨٤٨م ضدّ الفرنســـيين الذين كانوا يحاولون فرض سيطرتهم التجارية على طول نهر السنغال[٣]؛ فقد كانت المقاومة البراغماتية من الإمام «ســـاموري توري»- مؤســـس ســـلطنة «واسولو» ملهمةً لشعوب المنطقة، إذ صنعت دولته أسلحةً متطورة في مواجهة العدوان الفرنســـي، ونقل مملكته إلى مناطق أخرى عندمـــا اضطرّ لفعل ذلك مع القوى الكولونيالية، ونجح في العديد من الهجمات المضادة التي شـــنّها ضدّ الفرنسيين حتى قُبض عليه وتوفي في المنفى عام ١٩٠٠م[٤].

وعليه؛ فإنّ الحـــكام التقليديين في المجتمعات بغرب إفريقيـــا لم يحكموا شـــعوبهم فقط، بل قـــادوا النضالات والتحركات الشعبية لردع الاحتلال الأوروبي، ولذلك لجأت القوى الكولونيالية إلى إهانتهـــم وتعذيبهم وإبادة المناطق والمجتمعات المنظمة، كمـــا فعلت بريطانيا عندما حرّقت إمبراطورية «إيدو» المتماســـكة فـــي نيجيريا عام ١٨٩٧م عقاباً لملكها الذي لم يَنْصَعْ لأوامرها، بينما شقّت طريقها أيضاً في مجتمعـــات الإيبو بتدميرها لكلّ قرية ومملكة تلو أخرى؛ لتتمكّن من فرض ســـيادتها عليها بعد الحروب التي دامت من ١٨٩٨م حتى ١٩١٠م[٥].

رابعـــاً: المنـــاصب التقليديـــة والحكم الكولونيالي في غرب إفريقيا:

وجدت القوى الأوروبية نفسها أمام حقيقة جديدة بعد إزاحة الحكام التقليديين وضمّ مجتمعاتهم الإفريقية ضمن إمبراطورياتها الكولونيالية، تتمثّل في صعوبة حكم شـــعوب المجتمعات بغرب إفريقيا، وخاصّةً في المجتمعات المتدينة المحافظة، وذلك بسبب قوة العلاقة بين الناس وزعمائهم. إضافةً إلى أنّ سياسة بريطانيا بإبعاد الأفارقة الذين تلقوا تعليماً غربيّاً من الحكومة الكولونيالية[٦] أثبتتْ فشلها؛ لعدم وجود ما يكفي من الإنجليز المســـتعدين للعمل كمسؤولين كولونياليين في إفريقيا.

وهكذا تبنّت بريطانيا فكرة الحكم غير المباشر الذي اقترحه «فريدريك لوغارد» المسؤول البريطاني في نيجيريا، وذلك بهدف الحفاظ على الســـلطات والمناصب التقليدية وتوظيفهـــا في إدارة الســـكان وتطويرهـــا بإدخال عناصر تقتضيهـــا المصالـــح البريطانية، وانحصـــر دور الضباط

(١) Victor S. G. (2014). The Asante Of Ghana. International Journal of African Society Cultures and Traditions. 2(3), P.20-26.

(٢) المصدر السابق.

(٣) Hadja Tall. (2006). Al Hajj Umar Tall: The Biography of a Controversial Leader. Ufahamu: A Journal of African Studies. 32(1-2), P.73.

(٤) Jansen, J. (2002). A Critical Note on “The Epic of Samori Toure”. History in Africa. Vol 29, 219-229.

(٥) Igbafe, P. A. (1971). Western Ibo Society and its Resistance to British Rule: The Ekumeku Movement 1898–1911. The Journal of African History, 12(3), 441-459.

(٦) كانت خطة بريطانيا الأصلية لمستعمراتها في غرب إفريقيا أن تستوعب الأفارقة حضارياً وثقافياً؛ فصنعتْ نسختها الخاصة من «الإنجليز السود»، وهم نخبة أغلبها من الكريول تلقوا تعليماً غربيّاً، وذلك لتستعين بهم الإمبراطورية البريطانية في إدارة شؤون الكنائس والمناصب الإدارية العليا والأنشطة التجارية في مستعمرات فريتاون وباثرست (بانجول عاصمة غامبيا اليوم) وجنوب غانا ولاغوس. غير أنها غيّرت سياستها باستبدال هؤلاء الأفارقة «المتعلمين» بالأوروبيين في جميع المناصب الإدارية والخدمة المدنية.

والمسـؤولين البريطانيين في تقديم المشورة فقط لهؤلاء الحكام التقليديين- اللهم باستثناء المجالات الحرجة، مثل الضرائب والقوات العسكرية ونزع ملكية الأراضي[١].

ففي شـمال غرب نيجيريا، حيث بدأتْ سياسة الحكم غير المباشر في «كانو» عام ١٩٠٣م، قبل تعميمها في جميع أنحاء المسـتعمرات البريطانية بإفريقيا، أدخلت بريطانيا المجموعات العرقية الأصغـر حجماً في الولاية القضائية للمجموعات المجاورة الأكبر والأكثر تنظيماً. وحافظتْ على السلطات التقليدية الفاسـدة، كما عزّزت الانقسامات بين العائلة الحاكمة وبين الحاكم التقليدي والسكان[٢].

وفـي جنوب شـرق نيجيريا؛ عيّنـت بريطانيا زعماء بالوكالـة Warrant chiefs دون اعتبـار لطبيعة الحكم التقليـدي في هذه المناطـق وعلاقة الزعمـاء المُعيَّنين بالسكان الخاضعين لسلطتهم, كما هو الحال في مجتمعات قبائل الإيبو وأراضـي إِبِيبِيَوْ Ibibiolands ذوات أنظمة الحكم المُسـاواتية Egalitarian systems[٣]. وأوجدتْ بريطانيا أيضاً حكاماً غيـر تقليديين في المناطق التي لا توجد فيهـا دولة ما قبل الكولونياليـة، كما هو الحال في سيراليون[٤].

على أنّ سياسـة الحكم غير المباشر في مستعمرات بريطانيا بغرب إفريقيا أضعفت المؤسسـات التقليدية في وجه الضغوطات الاجتماعيـة والاقتصادية الأوروبية، لأنّ الحاكم التقليدي ليس رئيس النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصـادي كمـا كان قديماً، وأصبح لدى شـعبه خائناً وعميـلاً وظّفته بريطانيا لتنفيذ أجنداتها وقوانينها كالعمل الإلزامـي وجمـع الضرائب والتجنيد العسـكري، كما أنه بإمكان بريطانيا التخلص منه واستبداله بحليفٍ من العائلة الحاكمة أو حتى بمن لا ينتمي للعائلة[٥].

وقد واجه الحكم البريطاني سلسـلةً من الاحتجاجات والتحركات من قِبَل المثقفين الجدد والوطنيين الذين طالبوا بالتمثيل السياسـي وضرورة مشاركة السكان الأصليين في السـلطة، فعدّلت بريطانيـا اسـتراتيجيتها بإعلان نظام «الحكومة المحلية»، التي شـارك فيها الأعضاء المنتخبون والزعماء التقليديون[٦].

أما السياسـيات الفرنسـية بغرب إفريقيا؛ فهي أكثر مركزيةً واسـتبدادية؛ إذ جمعت فرنسا بين عامَي ١٨٩٦م و ١٩٠٤م جميع مستعمراتها الثمانية في المنطقة (موريتانيا والسنغال ومالي وغينيا وساحل العاج وبوركينا فاسو وبنين والنيجـر) في اتحاد غـرب إفريقيا الفرنسـية French West Africa، واختـارت «داكار» السـنغالية عاصمـة لها، واعتبرت كلّ المؤسسـات الإفريقية الأصلية «بدائية» و«بربرية»، وهو ما انعكس علـى النظام القضائي المطبق في هذه المسـتعمرات، وعلى التعامل الفرنسي مع عادات السكان الأصليين وسـلطاتهم وحقوقهم في ملكية الأرض والتعليم[٧].

---

(١) يُرجى مراجعة كتاب المسؤول البريطاني:
Lugard, L. F. J. (1922). The dual mandate in British tropical Africa. London: Blackwood and Sons,

(٢) Yakubu, A. M. (1993). The Demise of Indirect Rule in the Emirates of Northern Nigeria. In Legitimacy and the State in Twentieth-Century -Africa. Palgrave Macmillan, London. P. 162 .190

(٣) Okafor, S. (1973). The Warrant Chiefs: Indirect rule in Southeastern Nigeria, 1891–1929 by A. E. Afigbo London, Longman, 1972. Pp. viii 336. J4.00. - The Evolution of the Nigerian State: The Southern phase, 1898–1914 by T. N. Tamuno London, Longman, 1972. Pp. xvi 422. The -Journal of Modern African Studies, 11(3), 487 .489

(٤) Acemoglu, D., Chavas, I. N., Osafo-Kwaako, P., & Robinson, J. A. (2014). Indirect rule and state weakness in Africa: SierraLeone in comparative perspective. National Bureau of Economic Research. Retrieved from http://www.nber.org/papers/w20092

(٥) المصدر السابق.

(٦) مصدر سابق: حكيم نجم الدين. (٢٠٢٠). المناصب التقليدية في نيجيريا، وقضية عزل أمير كانو «محمد سانوسي» الثاني.

(٧) Sharkey, H. J. (2013). African colonial states.

ومع أنّ فرنسا قد حافظت على النمط الإداريّ في إمبراطورية «مُوسّي»، وجعلتْ «مُورو-نابا» Moro-naba في واغادوغو (عاصمة بوركينا فاسو اليوم) قائداً رئيسياً للإمبراطورية، وأسّست تحت قيادته خمسة وزراء يحكمون مناطق مختلفة[١]؛ فإنّ الزعماء التقليديين في غالبية المستعمرات الفرنسية الأخرى بغرب إفريقيا لم يحصلوا على سلطات حكومية محلية، ولم يكونوا قادةً لشعوبهم مقارنةً بالزعماء في المستعمرات البريطانية، كما أنهم لا يملكون أيّ وظائف قضائية، ويتوقف اختيارهم في المناصب التقليدية على التعليم وقدرة الإلمام بـ«الممارسة الإدارية الحضرية» الفرنسية وليس على الوراثة.

وفي المستعمرات البرتغالية بغرب إفريقيا (غينيا بيساو، وساو تومي وبرينسيبي، والرأس الأخضر)؛ لم يملك الزعماء التقليديون سلطةً معيّنة، حيث كانوا تحت سيطرة الضباط البرتغاليين[٢]. بينما أدت قلة مستعمرات ألمانيا في غرب إفريقيا (توغو، والكاميرون) وقصر فترة وجودها في المنطقة إلى عدم بنائها لإدارة كولونيالية متماسكة، حتى إن كان الاحتلال الألماني في إفريقيا قد اتّسم بالوحشية واللاإنسانية، حيث طلب من الأفارقة أن يكونوا رعاياه الدائمين، وبالتالي لا مكان فيه لأنظمة القيادة الأصلية الإفريقية[٣].

خامساً: دور الحكام التقليديين في الحياة السياسية والاجتماعية المعاصرة:

إنّ أكبر مشكلة خلقتها الكولونيالة الأوروبية في المؤسسات التقليدية بغرب إفريقيا؛ أنها أحدثت عداوةً كبيرة استمرت إلى اليوم بين الحكام التقليديين والمثقفين الوطنيين، حيث أبعدت بريطانيا مثلاً النخبة الجديدة من المثقفين والوطنيين الأفارقة من الحكومات المحلية وإدارة السلطات التقليدية، وهي نقطة استغلتها هذه النخبة إبّان نضالاتها من أجل الاستقلال وشدّدت عليها بعد الاستقلال وأثناء تشكيلها للحكومات الإفريقية الحديثة.

وفيما يلي إيجازٌ لأهمّ الأدوار التي يلعبها الحكام التقليديون في الحياة السياسية والاجتماعية المعاصرة بغرب إفريقيا:

أ- المؤسسات التقليدية في نظر الأنظمة السياسية الحديثة:

تواجه المؤسسات التقليدية بإفريقيا تُهَماً عديدة منذ انتهاء فترة الكولونيالية، وأبرزها أنّ الحكام التقليديين غيّروا موقفهم من معارضين للكولونياليين الأوروبيين إلى متعاونين معهم[٤]، وهو موقف غريب بالنظر إلى حقيقة أنّ المؤسسات التقليدية في إفريقيا كانت الضحية الأولى للاحتلال الأوروبي وأنها بذلت ما في وسعها لردعه.

وقد كان رأي قادة الاستقلال الأفارقة[٥] أنّ الزعامة التقليدية ليس لها مكان في إفريقيا «الجديدة» التي تحتاج إلى أنظمة سياسية جديدة، ومؤسسات حديثة، وقادة جُدد، وعقلية مناسبة للتطورات الجديدة. بل أيّدهم الحداثيون من الباحثين السياسيين بالإشارة إلى أنّ المؤسسات التقليدية استبدادية في طبيعتها ورجعية في سلوكها، وأنها تُكلّف أنظمة الحكومات الديمقراطية الحديثة موارد باهظة، وتعيق برامج تنموية وعمليَّات التحديث في إفريقيا؛ فتقدير الأنظمة التقليدية بالنسبة لهم لا يخرج عن دائرة

The Oxford handbook of modern African history, 151-170.

(١) Skinner, Elliott P. (1958). The Mossi and Traditional Sudanese History. The Journal of Negro History. 43 (2): 121–131.

(٢) Oliveira, P.A. (2017). Decolonization in Portuguese Africa. Oxford Research Encyclopedias, PP.1-25.

(٣) Chimee, I. N. (2016). Discussing German Genocide in Africa: The Case of the Herero and Nama of German South-West Africa?. Analele Universităţii Ovidius din Constanţa-Seria Ştiinţe Politice, Vol.5, No.1, PP.95-110.

(٤) Ayittey, G. (2016). Africa unchained: The blueprint for Africa's future. Springer, p.122.

(٥) Miles, W. F. (1993). Traditional rulers and development administration: Chieftaincy in Niger, Nigeria, and Vanuatu. Studies in Comparative International Development, Vol 31, No 3, pp. 28-50.

تقديرهم للثقافة الشعبية التقليدية، لأنّ الزعماء التقليديين لا يستحقون النظر إليهم بوصفهم أداةً مهمّة للتقدّم والتنمية أو الوحدة الوطنية[١].

وعلى الرغم من إلغاء الزعامة التقليدية (أو محاولات إلغائهـا)، بعد اسـتقلال غالبيـة الـدول الفرنكوفونية والأنغلوفونية بغرب إفريقيا، مثل غينيا وغانا وسـيراليون، فقد حافظ زعماء الاسـتقلال النيجيريون على الدور الذي شـغله الحكام التقليديون في الحكومـات المحلية local governments إبّـان الحكـم البريطانـي، حيث حظي أمراء الهوسا والفلاني في شـمال نيجيريا بمكانة خاصّة بعد الاسـتقلال، مقارنـةً بجمهورية النيجر التـي لم يُتِحْ فيهـا «حماني ديوري» أول رئيس للبلاد مكاناً كبيراً للحكام التقليديين[٢].

وقد أثّرت الانقلابات العسـكرية والانتقال إلى الحكم المدنـي في نيجيريا بين عامَي ١٩٦٠م و١٩٩٩م في فقدان السـلطات التقليدية لدورها التنفيـذي في نظام الحكومة المحلية، حيث لم يحدد دسـتور عام ١٩٧٩م أدوار الحكام التقليديين في الحكومة المحلية، ولم يشـدد دسـتور عام ١٩٩٩م عليها بالرغم من أنّ دسـتور ١٩٨٩م تميّز بتحديده وظائفَ المجلس التقليدي على مستوى الحكومة المحلية[٣]، وهـو ما يعني أنّ الحكام التقليديين في النظام السياسـي النيجيري الراهن ليسـوا سـوى موظفين لـدى الحكومة المحلية التي هي بدورها تحت إدارة حكومة الولاية؛ فالملك أو الأمير بحاجةٍ إلى إقامة علاقة جيدة مع رئيس الحكومة المحليـة المنتخـب أو مُحافظ الولايـة المنتخب state governor صاحب السـلطة التنفيذية في الولاية، وذلك لتفادي الإزاحة من المنصب التقليدي- كما خُلع ملك «أويو» عام ١٩٥٤م، وأمير إمارة «كانـو» عامَي ١٩٦٣م و ٢٠٢٠م، وأمير إمارة «موري» ١٩٦٥م، وغيرهم الكثير[٤].

وفي جمهورية غانـا؛ فقدَ الزعمـاء التقليديون منذ الاستقلال تقريباً جميع الأدوار الحكومية والقضائية وإدارة إيـرادات الأراضي التي تمتعوا بها إبّان الحكم الكولونيالي، بالرغم من أنّ دستور عام ١٩٩٢م تكفّل بمكانة واستقلالية هؤلاء الزعماء، وتستمر اليوم مناقشات سياسية في البلاد حول دور الزعماء التقليديين في الحكم المحلي ومشاركتهم في الأعمال المجتمعية والإقليمية والوطنية[٥].

ولا ينافي ما سبق أيضاً أنّ هناك من الحُكام التقليديين في دول بغرب إفريقيا، كغانـا ونيجيريا ومالي وتوغو، مَن تمكّنوا من التأثير في السياسـة المحلية والمشاركة بشكلٍ كبير فـي عملية صنع القرار الإقليمي والحكم السياسـي الوطني، كلٌّ حسب تأثيره الفردي وأهمية منصبه التقليديّ في أعين الفاعلين السياسـيين والمسؤولين المنتخبين في بلاده.

ب- الحفاظ على الهوية الإفريقية والأعراف:

تكمن خطـورة إلغاء المؤسسـات التقليدية الإفريقية بدعوى أنها لا تتناسـب مع الأنظمة السياسـية الحديثة، أو أنها لا تعزز الديمقراطية، فـي احتمالية اختفاء إحدى الأنظمـة الأصليـة التي تملكهـا إفريقيـا، والتي وجدت طريقها للبقاء حيّة على مرّ العصور، وخصوصاً أنها حقّقت نجاحاتٍ- من حيث الحفاظ على الهويّة والثقافة والنسـيج

(١) Logan, C. (2008). Traditional leaders in modern Africa: can democracy and the chief co-exist?. Institute for Democracy in South Africa (IDASA). P.3.

(٢) مصدر سابق: Miles, W. F. (1993). Traditional rulers and development administration: Chieftaincy in Niger, Nigeria, and Vanuatu.

(٣) Tonwe, D. A., & Osemwota, O. (2013). Traditional rulers and local government in Nigeria: a pathway to resolving the challenge. Commonwealth Journal of Local Governance, Issue 13, P.128-140.

(٤) PM News. (2020). Ovonramwen, Tukur & 10 other monarchs dethroned in Nigeria. Visited on 8 April 2020, retrieved from https://www.pmnewsnigeria.com/2020/04/11/ovonramwen-tukur-10-other-monarchs-dethroned-in-nigeria/

(٥) Mahama, C. (2009). Local Government and Traditional Authorities in Concert: Towards A More Productive Relationship. Commonwealth Journal of Local Governance, Issue 4, P.7-25.

الاجتماعي المحليّ بإفريقيا- والتي تجعلها أداة رئيسية في عمليات تصفية استعمار العقل الإفريقي[١].

وقد أدركت النخبة السياسية المعاصرة بغرب إفريقيا أهميـــة دور الحـــكام التقليديين كمســـتودعين للأعراف الإفريقية التـــي يحتاجون إليها عند الســـعي وراء تحقيق أهداف سياســـية، ولذلك استغلّ سياســـيون صداقتهم مع الحكام والزعماء التقليديين في كســـب التأييد الشعبي[٢]، بينما أعاد آخرون صياغة القيم التقليدية وتعريفها بطريقة تجعل مقترحاتهم الأيديولوجية مستســـاغةً لدى الناخبين المحافظيـــن. وتكفي مثـــالاً لذلك حـــركات الإصلاحيين ضدّ القوى الكولونياليـــة الأوروبية في بلدان غرب إفريقيا واحتجاجات المثقفين ضدّ الســـلطات التقليدية في شمال نيجيريا، حيث اســـتغل هـــؤلاء اطلاعهم علـــى تقاليدهم المرتبطة بالإسلام وسمعة عائلتهم الدينية لشنّ هجوم على الحكومات القائمة أو طلب التغيير والعدالة[٣].

ج- الوساطة بين الحكومة والشعب:

يؤكـــد وضع الحكام التقليديين في غرب إفريقيا تحت الحكومات المحلية أهميتهم كأقرب الآليات للسكان، حيث تشهد مساهماتهم في التنمية المحلية بالدول الفرنكوفونية على أنهم أكثر فهماً لمطالب القواعد الشعبية والمشكلات المحلية على المســـتوى الوطني. كمـــا أنّ الملوك والأمراء والزعماء في دول المنطقة لا يزالون يحظون بنســـبة كبيرة من الاحترام لدى مجموعاتهم العرقية، مما يزيد في دورهم كوسطاء بين الشعب والحكومة[٤].

وتشرح السلطات التقليدية في مختلف الدول بالمنطقة برامجَ الحكومة الوطنية للســـكان وتنفّذ سياســـتها عليهم أحيانـــاً. ويكون الحاكم التقليدي مستشـــاراً للحكومة (كما فـــي نيجيريا)، أو مُوجَّهاً ومأمـــوراً مُكرَهاً (كما في النيجر وغيرهـــا)، وإن كان الأكثر حدوثاً أن يأخذ الحاكم التقليدي زمام المبادرة (بدلاً من أن يؤدي دور الوساطة) بحيث ينفّذ البرامج على المســـتوى المحلي، ويمثّل الوكلاء الحكوميين دور الداعمين له[٥].

د- تعزيز الوحدة الوطنية:

كان من النقاط التي أثارها الحداثيون ضدّ المؤسسات التقليدية: أنّ وجود تسلسلات هرمية قيادية إثنية أو زعامة إقليمية يتعارض مع فكرة الوحدة بين المواطنين وبناء الهوية الوطنيـــة، وهو ادّعاءٌ يتناقض مـــع الواقع العملي في بلدان غرب إفريقيا، وخاصّةً في نيجيريا التي يســـاهم الزعماء التقليديون من الشمال والجنوب، منذ نهاية الحرب الأهلية في عام ١٩٧٠م، في إخماد نيران الصراعات العرقية فيها، وتوطيد أواصر التعاون والعلاقات بين المجموعات العرقية المختلفة هناك[٦].

كما أنّ الســـمة المميّزة لسياســـات ما بعد الاستقلال فـــي غرب إفريقيا؛ أن تُمْنَح ألقـــاب زعامة تقليدية فخرية لشـــخصيات وطنية بـــارزة تقديراً لجهودهـــم في خدمة للمجتمع. وفي نيجيريا دائماً مـــا يُعيَّن الحكام التقليديون البارزون في المنصب الفخري كرؤساء الجامعات الحكومية، وتَمنـــح الحكومة الفيدرالية ألقابـــاً وطنية لأمراء الإمارات

(١) Oelofsen, R. (2015). Decolonisation of the African mind and intellectual landscape. Phronimon, Vol 16, No 2, 130-146.

(٢) Nic Cheeseman. (2018). Understanding African politics: Why we need to bring the state back in. In Nic Cheeseman (ed.) Institutions and Democracy in Africa: How the rules of the game shape political engagements. Cambridge: Cambridge University Press, pp.1-39.

(٣) Whitaker Jr, C. S. (2015). The politics of tradition: Continuity and change in Northern Nigeria, 1946-1966. Princeton University Press. P.330.

(٤) Laleye, O. M., & Ayeni, V. (1993). On the politics of traditional rulership. International Journal of Politics, Culture, and Society, Vol 6, No 4, pp. 555-571.

(٥) Miles, W. F. (1993). Traditional rulers and development administration: Chieftaincy in Niger, Nigeria, and Vanuatu. مصدر سابق.

(٦) Ganiyu, A. A. (2016). Traditional Rulers and The Promotion Of National Unity In Nigeria-Emerging Trends. Nigerian Journal Of Social Studies, XIX)2(, 147-160.

وملــوك الممالك البارزين اعترافاً بدورهم على المســتوى المحلــي والإقليمي. وقد أدى تكريم مختلف المؤسســات التقليدية لشــخصيات وطنية من أقاليم أخرى إلى توسيع حدود هوية المجموعة الإقليمية لتشمل الوحدات السياسية الأكبر حجماً[١].

هـ- الحكام التقليديون بوصفهم حفظة السلام وأمناء المظالم:

يصعب على الحكومات المعاصــرة بغرب إفريقيا أن تحافظ على الأمن والسلام وأن تطبق القانون في المناطق الريفية والقرى النائية بدون مســاهمة الزعماء التقليديين، حيث يتركز اهتمام الحكومات في المدن الرئيســية، وكثيراً ما تعاني قوات الشرطة من نقص شديد في الموارد وتفتقر إلى دعم شــعبي للقيام بأعمالها. إضافــةً إلى أنّ للزعماء المحليين دوراً كبيراً في حلّ النزاعات الخفيفة والصراعات المتعلقــة بالدين والعــادات نظراً لصعوبــة الوصول إلى المحاكم العادية في المناطق البعيدة عن المدن[٢].

وقد استنبط البروفيســور «فيكتور أيبني» من دراسته حول دور الحــكام التقليديين في نيجيريــا المعاصرة؛ أنّ الزعماء التقليديين قديماً وحديثاً في إفريقيا كانوا يلعبون دور أمناء المظالم المجتمعيــة، حيث يمكن ملاحظة ذلك بقوة في الأنظمة الإدارية شــديدة المركزية، وبشــكلٍ أقلّ في أنظمة الحكم اللامركزية والمُســاواتية. وما زال عمل القادة التقليديين كأمناء المظالم المحلية مستمراً إلى اليوم بالرغم من أنه غير رسميّ[٣].

الخاتمة:

يُســتنتج مما ســبق: أنّ لإفريقيا أنظمتهــا القيادية الأصلية، والتي كانت موجودةً قبل الكولونيالية ومعروفةً بين السكان الأصليين، وأنّ إرث الكولونيالية في مؤسسة القيادة التقليديــة، الذي تمثل في تخفيــض أدوارها (أو محوها)، وتعزيز بقاء حلفائها من الزعماء التقليديين على رأسها، قد أدّى إلى تشويه سمعة هذه المؤسسة التقليدية، وساهم في صراع الحكام التقليديين مع قادة الحكومات الحديثة الذين فضّلوا عدم تحديد أدوار الزعماء التقليديين في حكوماتهم، ليؤدي إهمالها إلى دعوة البعض إلى محوها من المشــهد السياســي، على الرغم مما قدّمه الحــكام التقليديون من خدماتٍ ومهامّ في إدارة حكومة ما بعد الكولونيالية.

ويتضح مما سبق أيضاً: أنّ غالبية السكان في المناطق الريفية لا يزالون يعتبرون القيادة التقليدية مؤسسةً موثوقةً للحكم وقريبة منهم، حيث فشــلت الحكومات الديمقراطية في فهم احتياجات سكان الأرياف والمناطق النائية وتقريب التنمية إليهم. بل إنّ النسبة الكبرى من المواطنين العاديين لا تــزال تنظر إلى زعيمها التقليدي بوصفه «أبا الشــعب» الذي يهتمّ بأمــر جماعته ويحافظ علــى تاريخها وتراثها وتقاليدها، وهو دورٌ قد يكون في بعض الأحيان أكبر أهميةً من منصب رئيس الدولة أو المناصب السياسية الحديثة.

وعليه؛ فــإنّ تقلّص وظائف الحاكــم التقليدي بغرب إفريقيا وتغيّر أدواره لا يعني بالضرورة أنّ مؤسســة الحكم التقليدية غير صالحة لمواجهة تحديات الأنظمة السياسية المعاصرة، حيث إنّ قدرة اســتراتيجيات هذه المؤسســة التقليدية على مناورة الأنظمة المختلفة، وتكيّفها مع الحكم الكولونيالي ثــمّ الحكومات المعاصرة، تؤكــد أنها فعّالة، وأنّ مــا تحتاج إليه هــو التوجّيه مــن الحكومات الحديثة فــي الأماكن الاســتراتيجية بالمجتمعــات المحلية، وهذا التوجيه يتطلّب تحديد وظائف الزعماء والحكام التقليديين في الدســاتير الوطنية، وهو ما سيساهم أيضاً في تفادي الصدام بينهم وبين المسؤولين المنتخبين■

(١) مصدر سابق: Miles, W. F. (1993). Traditional rulers and development administration: Chieftaincy in Niger, Nigeria, and Vanuatu.

(٢) مصدر سابق: Ganiyu, A. A. (2016). Traditional Rulers and The Promotion Of National Unity In Nigeria-Emerging Trends.

(٣) Ayeni, V. (1985). Traditional Rulers as Ombudsmen in Search of a Role for Natural Rulers in Contemporary Nigeria. Indian Journal of Public Administration, 31)4(, 1318-1330.